الفصل الثانى
الفتح الإسلامى لآسيا الوسطى
وعوامل نشر الإسلام

الحياة الاجتماعية فى آسيا الوسطى قبل الفتح العربى

كان يقطن آسيا الوسطى عند قدوم الفاتحين العرب عناصر سكانية متعددة إيرانية وتركية وصينية ومغولية، وتشير المراجع الفارسية على أن التركيب الاجتماعى فى أسيا الوسطى قبل الإسلام، يغلب عليها العنصر الآرى، وقيل أن بخارى مثلا من أقدم المدن التى استقر بها الآريون ومن الثابت إن هناك مدنا إيرانية فى آسيا الوسطى أرسى قواعدها الإيرانيون إلى ما قبل عصر الدولة الاكمينية (٥٥٠ ق.م - ٣٣٠ق.م)، وسرعان ما تعرضت بخارى لغزو الاسكندر ثم صارت جزءا من دولة الباختريين (بلخ) ولما قدمت جماعات من الترك اقليم ما وراء النهر فى القرن السادس الميلادى واستولو على المدن الإيرانية نزل عدد منهم بخارى حيث استقروا فغلب عليها الطابع التركى.

ويذكر عطا ملك الجوينى فى "تاريخ جهانكشاى" على غلبة العنصر التركى الذى ساد بخارى قبيل الفتح العربى، غير أن الطابع على الرغم من التمركز التركى المستبد بتلك النواحى قبيل ظهور الإسلام الامر الذى جعلة يعتقد ان أهل بخارى يعيدون من حيث الاصل إلى تلك الجماعات الإيرانية التى قدمت بخارى من اصطخر، وهناك إشارات فى المصادر ترجع نشأة اصطخر إلى ماقبل القرن الرابع الميلاد، وهو نفس التاريخ تقريبا الذى يؤرخ به المؤرخون الإيرانيون المحدثون لظهور الجماعات الإيرانية حيث كان العنصر الآرى، وكان للطابع الإيرانى أثرة البالغ فى الحياة الثقافية فى بخارى على مر العصور الإسلامية المتلاحقة.

كما ظهر الصينيون فى آسيا الوسطى وغيرها فى القرن السابع الميلادى، وإذ استولوا عليها واتخذوا فيها مراكز ثابتة.

وعلى كل حال فإن آثار اورخون التى تعتبر من أهم المصادر فى الكشف عن فجر تاريخ الترك فى أسيا الوسطى، تؤكد أنه فى النصف الأخير من القرن السادس الميلادى وأوائل السابع ظهر شعب جديد فى بلاد ما وراء النهر، وان الشعب اتخذ للمرة الأولى فى تاريخ هذا الإقليم اسم الترك، ومما يدعو إلى الدهشة أن النقوش الصينية تؤيد ما ورد فى أثار اورخون فى شأن ظهور العنصر التركى فى تلك النواحى، كما يؤيدها بنفس القدر النقوش البيزنطية، وكان من الطبيعى أن ينهض الترك نحو توطيد نفوذهم فى مواطنهم الجديد، فانفصلوا على يمر فترة زمنية قصيرة الأجل عن الأتراك الشرقيين، حيث أنشأوا فى بلاد ما وراء النهر سلسلة من الإمارات المستقلة.

واتخذت الحياة الاجتماعية فى آسيا الوسطى قبيل الإسلام مظاهر خاصة، ذلك أن تلك الفترة تعكس حياة البداوة التى استمسك بها الترك حينئذ، كما ساد المتجمع التركى التقاليد والأعراف القبيلة، وهناك من الآراء ما يذهب إلى القول بأنه كان فى بخارى فى ذلك الوقت تسعون أسرة تخضع لهذه الأحكام.

وتظهر تلك التقاليد بطبيعة الحال فى المناطق الجبلية والرملية فى بعض نواحى بخارى، الأمر الذى يفسر لنا ظاهرة العنف عند الأتراك، وتصف المصادر الترك فى تلك النواحى بأن باسه شديد وشوكتهم لا نظير لها، ورماة مهرة، الأمر الذى أسهم فى خلق انطلاقه جهادية تركية فى ظل الإسلام.

أما طابع البداوة الذى ميز المجتمع التركى فى آسيا الوسطى فيرجع فقد كان من مظاهره أن كان الناس فى البداية يعيشون فى الخيام ثم بنوا المنازل فى جهات عديدة صارت فيما بعد من جملة مدن بخارى فى ظل الإسلام.

والأمر الجدير بالإشارة أن النمط القبلى لم يكن - فى رأينا - مؤديا إلى ظهور بخارى وغيرها ككيان سياسى، مع تسليمنا تماما بوجود التقاليد القبيلة وتمسك الشعب التركى بها حتى بعد دخول العرب المسلمين بلاد ما وراء النهر، فهناك عوامل أخرى اقتصادية أسهمت بطبيعة الحال فى خلق ذلك الكيان السياسى الذى يحركه دوافع اجتماعية بالغة الخطورة كان لها أثر يغفل على المستقبل السياسى والدينى لتلك الجهات، فإلى جانب المناخ غير الملائم بالصحارى والجبال

التى تجاور بخارى فى بعض النواحى هناك مناطق أخرى لا يمكن إنكارها فى الجهات فى الجهات الشرقية من بخارى تشغلها الوديان والسهول، وهى مناطق صالحة للزراعة، فضلا عن الرواج التجارى الكبير والنزعة التجارية التى غلبت على عقول البشر بجهات كثيرة من بخارى، وهذه العوامل تقلص تماما النمط القبلى مع الحفاظ على هامشية قبلية لا تسهم بالضرورة فى خلق كيان سياسى مثل بخارى، ونستخلص من إشارات النرشخى التى أوردها نقر عن أبى الحسن عبد الرحمن النيسابورى أن العمل الجماعى فى إطار التحالف يعد أمرا ذا بال فى شأن ظهر أى كيان سياسى، وأما منا ظاهرتان متمايزتان جديرتان بالاعتبار أولاهما تبرهن على أن العملى الجماعى الذى أثبته المزارعون فى الجهات الشرقية من إقليم يقد أسهم إسهاما كبيرا فى بلوغ ذلك الإقليم أوج شهرته، بل أن المر لا يدعوا إلا الدهشة إذا قلنا أن هذا الدافع كان سببا فى تشكيل التركيب الاجتماعى فى تلك الجهات، وثانيهما أن "شيركشور" نفسه الذى ذكره النيسابورى لم يحظ بولاية بخارى ألا بدافع التحالف الذى تم بين الدهاقين وأصحاب الأراضى وملك الترك " افراجورين" لتقليص نفوذ أمير بيكند، ولما نجحت الخطة منح "فراجورين" – هذا – بخارى إلى ابنه "شيركشور" فأوفد هذا الخير فى استحضار هؤلاء الأغنياء الذين لاذوا بالتركستان، وسرعان ما انتهى الأمر بعودتهم بزعامة "بخاراخذات"، ودخول الفقراء فى خدمته، وكان أكثرهم من خدمه وعبيده على حد قول النيسابورى.

ومما يجدر ذكره أن تلك الظروف الموضوعية التى أسلفنا الإشارة إليها أفرزت ظاهرة اجتماعية تنطوى على فجوة عميقة بين الدهاقين الذين كانوا يمثلون أرستقراطية زراعية مسطرة، ويرتبط بهم التجار ارتباطا كاملا وبين العامة، وحفلت الأرستقراطية الزراعية بمكاسبها، أبناؤها الصينيين – الذين دخلوا بخارى قبل قدوم العرب إليها – حفاظا على مصالحهم، وعرف عن الدهاقين فى بلاد ما وراء النهر أنهم استغلوا الولاء للصين فى كبح الحركات الشعبية، تثبيت سلطانهم وإنشاء أمارات تركية مستقلة.

ونستدل من المصادر أن الدهاقين فى نواحى آسيا الوسطى كانوا يحتلون مكانه اجتماعية لا مثيل لها فى أقاليم ما وراء النهر، فكان هؤلاء من كبار ملاك

الأراضى على مـر فتـرة زمنيـة طويلة، وكـان أغلب شعب بخـارى مـزارعيـهم وخدمتهم.

وكان يربطهم بـالصين روابط اجتـماعيـة بلغت حد المصـاهرة مما أسهم فى تثبيت أقدامـهم فى بخارى، وكان الدهاقين الذين خضوا فى بخـارى لبيدون بخار خدات يورثون أبناءهم تلـك المكانة فهذه زوجـة بيدون المعروفـة "بالخاتون" تصل إلى عرش بخـارى، وتظل عليه مدة خـمسة عـشر عامـا حيث كانت تملك أكـثر الضياع، وكان من عادتها أن تخرج كل يوم من حصن بخارى على ظهر جوادها،ة حيـث تقف على أحد أبوابه، فـتجلس على تحت (وأمـامهـا الغلمـان والخصـيان والأشراف والحـشم) وكان يقـوم على حراسـتهـا كل يوم مائتـا شاب يتمنـطقون بالذهب، ومعهم سـيوفهم الذهبيـة، وكانوا يستبدلون بغـيرهم فى كل يوم، وهذا طغشـادة ابنها إلى جـاء من بعدها كـان يمتلك الـضياع، ويعطـى كلا من أولاده وأصهاره حصة منها.

ونستخلص من كتابات الطبرى مـا يفيد بأن ملوك بخارى الذين تبوأوا حكم بخارى من ملاك الأراضى كانوا يقتنون المعادن النفيسة فضلا عما كان فى حوزتهم من الذهب والفضة (مما لا يحصى).

وكان أبناء الأسـرة الحاكـمة فى بخـارى يهتـمون بالقصـور، وتعكس هذه المنشآت المكانة الرفيعة التى كانت تميز هذه الأسرة، ويفهم من كلام الأصطخرى أن أبناء القصور فى بخارى ونواحيها كان عادة بحيث صار من السهل انتشار مثل هذا النوع من العمارة وسط البساتين بمحاذاة الأنهار التى كانت تربط إذ ذاك بين نواحى بخارى.

أما القصر الرئيسى، فكان يعرف بالـقصر المدينة، وكان يضم فى داخلة مقرا للأسرة الحاكمة عرف عند النرشخى بالقصر الملكى، وقيل إن هذا القصر تهدم بعد بناه "بيدون بخار خداه"، فأعيد بناؤه ثم انهدم وهكذا مرار حتى استجمع الحكماء أمرهم (وصار الاتفاق على أن يبنى هذا القصر على سبعة عمد حجرية على شكل بنات نعش التى فى السماء فلم يهدم على تلك الصورة) وكانت تلك الفترة الزمنية لا تخلوا من الأسطورة، ومن ذلك أن القلعة - وهى القصر الكبـير - استقامت،

ولم يهاجمها ملك من بعد إقامة هذه الاساطين الجرية السبعة إلا وهلك عند أسوارها، بل لم ينهزم فيه ملك، ولم يمت فيه أحد - أيضا - من الملوك.

وكان ذلك القصر الكبير أشبه بقلعة محصنة منذ أن بناها سياوش بن كيكاوس فى بخارى، فضلا عن أهميته الدينية، وكان فى داخلة إلى جانب القصر الملكى الدواوين المالية وبيت الحريم والسجن والخزانه.

وبلغت مكانه ملك بخارى قبل الإسلام حدا كبيرا بحيث صار م اليسير على بخاراخدات الذيوع والانتشار على ما دونه من ملوك ما وراء النهر، وهكذا عرفت بخارى عند المؤرخين الارانيين المحدثين الذين أرخوا لتلك الفترة بأنها مستقر ملك الشرق.

ومن الملاحظ أن أمراء بخارى كانوا يقطنون ضاحية القصر التى كانت تضم أيضا قصرا يخص الأمراء والدهاقين، الأمر الذى يؤكد أن طبقة كبار الملاك من الدهاقين النبلاء والتى يعود إليها من حيث الأصل والنشأة الأسرة الحاكمة فى إقليم بخارى يحفلون بأماكن النزهة فيرتادونها فى فصل الشتاء، وكانت رامثين من نواحى بخارى ملتقى أبناء الأسرة الحاكمة فى هذه الفترات.

أما المدينة نفسها فكان يحيط بها سور محكم تتوسطه قلعة بخارى، وكانت من حيث التصميم تميل إلى الشكل المربع، كما كان لهذه المدينة سبع بوابات حديدية، فى حين كان للقلعة بابان، وللضاحية عشر مداخل، وكان للدهاقين والأمراء بهذه الأقسام الرئيسية الثلاثة فى بخارى مراكز ثابتة؟ على أن القلعة بكنى الأسرة الحاكمة.

وكان للأسرة الحاكمة فى بخارى صلات معروفة بآل ساسان، وكانوا يعاملونهم بما ينطوى على الود، وعرف عن بخارا خداة أنه يفيض كرما إذا ما قدم عليه أحد من أبناء كسرى، وكثيرا ما كان يجول عطاءه عليه، ويحكى عنه أنه استقبل فى يلاطه من بين هؤلاء "شابور" وأقطعه مكانا حيث حفر فيه نهرا عظيما واسماه باسمه "شابور كام".

ولم يخف بخاراخداه إعجابه بشابور وظل حاميا له، الأمر الذى كان من شأن هذا الأخير أن تطاول فى البنيان، وهكذا أقام على ذلك النهر قصرا ورساتيق

وقرية، وجعل لنفسه مقرا، وظل مـقيما بذلك المكان حتى توارثه أبناؤه من بعده، غير أنه سرعان ما دبت الواقعية فـيما بين طغشاده حاكم بخارى وبين وردان خداه ابن شـابور زعيم طائفـة الفرس فى بـخارى، وأفـاد العرب من ذلك كـثيـرا عند قدومهم بخارى.

والحق أن ما أسلفنـاه يعكس تفككا سياسـيا فى بخـارى قبيل قـدوم العرب لفتح هذه النواحى، كما أن الترابط الاجـتماعى بين الدهاقين والأمراء الذى لمسناه فيما أسلفنا لا يتـبعه بالضرورة ترابط سياسى بين هاتين الفـئتين، ذلك أن الصراع الداخلى كان قـد غلب على ديار الأتراك، وألقى بها فى هوة من الفـوضى وعرف ذلك التفكك السياسى بين الدهاقين والأمراء بشكل عام فى بلاد الترك.

الحياة الثقافية فى آسيا الوسطى قبل الفتح العربى

مما لا شك فيه أن الظروف البيـئية والسياسية أسـهمت فى إبراز نشاط ثقافى فى بلاد ما وراء النهـر، فالحياة الثقـافية تعكس التطورات السـياسية التى شـهدتها بخارى وغـيرها، فـضلا عمـا تنطوى عليه من آثار أفـرزتها العوامـل الجغرافـية، فالشعب التركى فى بخارى بحكم موقعه كان يستقبل تيارين ثقافيين أولهما - وفق التسلسل الزمنى ومـدى تأثير العامل البيـئى - تيار وافد من إيران، وثانيـهما، من الصين، وكان لهذين التيارين أثر بالغ التأثيـر فى تطور الحياتين الثقافية والدينية فى إقليم بخارى.

كان طبيعـيا أن يكون لغلبة العنصر الارى على بخارى منذ الـقدم، أثر فعال فى رواج اللغة الفارسـية وانتشار العادات الإيرانية، وأورد الاصطخـرى ما يفيد أن اللغة الفارسيـة قد راجت فى بخارى قبيل الإسلام لكن تخـتلف عن لغة الصغد، حيث تفـاوت قليلا لقيـام الشعب بخارى بتـحريف بعض الكلمـات، أما أزياؤهم فكان يغلب عليها - أيضا - الطابع الإيرانى السائد فى بلاد ما وراء النهر، فاعتادوا على استخدام الأقبية والقلانس.

وواكب ظهور العنصر التركى فى بخـارى منذ القرن السادس الميلادى ظهور لهجة تركية بخارية إلى جانب اللغـة الفارسية لكن الآداب والرسوم الإيرانية ظلت

غالبة فى بخارى، وأقبل عليها الشعب البخارى، ويلمس المؤرخون الفرس وجود هذه الظاهرة حتى وقتنا الحاضر.

ويتجلى أثر العامل الجغرافى فيما انطوت عليه الحياة الثقافية فى بخارى من مؤثرات دينية وافدة بدافع من النفوذ الإيرانى ثم الصينى، فالديانة الزرادشتيه فى بخارى تعكس أثرا إيرانيا واضحا فى حياة الناس، فيذكر النرشخى أن رجال الدين الزرادشت (مغان) كانوا يحترمون قلعة بخارى تخليدا لسياوش "ابن الملك الأسطورى كيكاس ملك إيران، حيث فو من والده وعبر نهر جيحون ولقى جيحون لقى ترحيا من أفراسياب ملك الترك الذى رحب به وزوابنته وأعطاه مملكته، وطالبه بتخليد شىء، فأنشأ له هذه القلعة، وظل بها إلى أن دفن فيه بعد مقتله بتدبير من أخى أفراسياب.

ومما قيل أن لأهل بخارى فى ذكرى مقتل "سباوش" يوم حزن من ذلك موسما صار معمولا به فى كافة قرى ومدن بخارى، وعرفت هذه النياحات (بنواح المجوس)، وقيل أنه بسبب إجلال المجوس لهذه الذكرى كان رجل ينحر عند القلعة تخليدا لهذه الذكرى ديكا ضمن ما يقدمه من نذورات قبل (طلوع الشمس النوروز).

وكانت المجالس الاجتماعية التى أقدم عليها ملوك قبل الإسلام تنطوى على نزعة زرادشتية، فكانت خاتون زوجة بيدون بخارا خداه تعتاد على الخروج كل يوم من حصن بخارى إلى أن تصل إلى باب المعبد (ريكستان) حيث يعتقد مجلس اجتماعى يشارك فيه الغلمان والخصيان والأشراف والحشم، وعند الفراغ من المجلس تقف الخاتون أمام نفس الباب، (فتخلع على من تريد وتعاقب من ترديد)، وعند المساء توالى الخاتون عقد المجلس على باب المعبد من غروب الشمس، وهكذا تتكرر الظاهرة فى اليوم التالى.

وانتشرت - بطبيعة الحال - بيروت النار فى بخارى وقراها، وكان البخاريون يوقدون النيران على ما جرت به العادة منذ القدم قبل بدء كل عام جديد وحلول الربيع، ويحكى عن آل كثلثة من المجوس، أنهم كانوا ينتشرون بيوت النار فى بخارى، ولما قدم العرب نقلوها إلى خارج المدينة.

ويذكر الجـوينى أنه كان يوجد ببـخارى معـابد للبوذية، وأورد ما يفـيد إن بخارى مشقة من بخار وهى بلغة (المعان) رجال الدين الزرادشت "مجمع العلوم" وتقترب هذه الكلمة من كلمة معبد الايغور والخطأ.

ووردت كلمـة بخارى فـى رحلة السائح الصـينى "هوان جـوانك" Huan cuangالذى قـام برحلته إلى هذه الـنواحى سنة ٦٣٠م باسم بو هو pu Ho) الذى هو مأخـوذ من اسم بخارى المعـروف فى اللغة التركـية، واصله بخـار المأخوذ من السنسكريتية "دهار" (Vehara) وتعنى الصومعه أو الدير.

كذلك كان للبوذية رواج كـبير يذكر فى تلك النواحى، ويرجع ذلك إلى أثر انتشار نـفوذ الصين بين أتراك الشمـال (١٦٣ ق. م - ١٩٦)، ويعتقد المسـتشرق فامبـرى أن العقائد البوذية قد وجدت لهـا أتباعا على ضفاف زوفـشان فى القرون المسيحية الأولى.

وكان لاتصـال بخارى بالصـين منذ القدم أثره الفـعال فى الترويـج للبوذية خلال تلك الفترة، ويحكى عن (اسكجكت)، أن أحد ملوك بخارى الأقدمين كان قد تزوج باينة خـاقان الصـين، فحمل إليـه ضمن ما حـمل معـها معـبدا وأوثانا وضعت فى رامـثين من توابعـلا بخارى، وقـد حظت هذه الناحيـة بعناية الملوك، فاهتموا بتضحيتها حيث اتخـذها الأمراء مقاما لهم لما لها من أهمية دينية، وكانت بيكند على تلك الحال من الأهمية، لما بها من المعابد البوذية.

وظلت البـوذية فى بخـارى ومـا جـاورها قـائمة إلـى أن إدراكهـا العـرب الفـاتحون، ويحكى البـلاذرى أنه حين قـدم العرب إلى البـتم أصابوا أصنامـا من ذهب.

ويتجلى لنا رواج البوذية فيما ظهر بنواحى بخارى من أسواق لبيع الأصنام، ويذكر النرشخى أنه كـان يقام قبل الإسلام فى بخارى سـوق "ماخ" لبيع الأصنام مرتين فى كل عـام ولمدة يوم واحد كل مرة، فكان يباع منهـا ما يربو قيمـته على خمسين ألف درهم فى اليوم الواحد.

والحق أنه على الرغم من مكانة رجال الدين الزراشت بين الشـعب البخارى مرت فتـرة زمنية طويلة، إلا أن الأثر الصينى كان من شـأوه أن يروج للبوذية بين

الإراد السلطة الحاكمة إبان حكم أسرة هان الصينية (١٦٣ق.م - ١٩٦م) وظل ذلك الأثر قائما إلى أن اشتد عوده) بطبيعة الحال فى القرن السابع الميلادى باستيلاء الصينيين على بخارى، مما يعكس لنا نضالا دينيا بين البوذية والزراشتية فى بخارى - بالذات - جاء مقرونا بصراع آخرعرقى شديد الوطأة بين شعبين (التورانيون) - و(الإيرانيون)، وكان ذلك الأخير أكثر ضراوه ويؤيده قيام الإيرانيين فى حمية طبيعية دفاعا عن ديانتهم القومية، وكان لذلك الصراع أثره فى ظهور تفكك سياسى أفاد منه العرب الفاتحون كثيرا.

ولا يخفى علينا أن النضال بين البوذية والزراشتية فى بخارى قد فتح للجهود التبشيرية المسيحية القادمة بابا يسهل اختراقه، ونأخذ فى هذه السياق بالتحليل الذى قدمه فامبرى والذى انتهى إلى أن مطاردة الامبراطورية البيزنطية للنساطرة المنشقين على الكنيسة فى القرن الرابع الميلادى بسبب الخلافات المذهبية قد دفعت بهؤلاء إلى الهروب إلى الشرق لكسب عطف الساسانيين، الأمر الذى أسهم فى خلق مناخ صحى نفذوا منن خلاله مستغلين ذلك الاصطدام بين البوذية والرزتادشتية، وهيأوا لجهودهم التبشيرية مجالا واسعا فى بخارى قبل الإسلام، غير أن ظهورها فى سمرقند كان يسبق بخارى حيث ظهرت الاسقفيات البابوية فى القرن الخامس الميلادى وسرعان ما كتب للمسيحية الرواج فى القرن السادس الميلادى، وأورد النرشخى ما يفيد أن الغرباء الذين تدفقوا على بخارى أسهموا فى الدعوة إلى هذه الديانة قبل قدوم العرب، وأن العرب أدركوا الكنائس بداخل المدينة حين قدموا إليها بقصد الفتح.

وصفوة القول، أن الشعب التركى قد قاسى على مر فترة زمنية قبل الإسلام من أزمات سياسة وتفككت وحدته الاجتماعية على أثر سيطر كبار الملاك (الدهاقين) وكبار التجار، فضلا عن افتقاره إلى الوحدة المذهبية الأمر الذى من شأنه أن ييسر على العرب الفاتحين أمر فتح هذه البلاد.

أولا: الحكم بن عمرو الغفارى:

تولى الحكم بن عمرو الغفارى خراسان من قبل زيادة بن أبى سفيان حاكم العراق، فتقدم فى هذه البلاد فاتحا العديد منها، وما أن افتتح الجوزجان حتى

أرسل قواته إلى طخارستان وجبال الغور، ثم إلى نهر جيحون عابرا إياه متقدما بقواته حتى منطقة الصغانيان، فطارد هناك فيروز بن يزدجرد الذى فر هاربا إلى أرض الصين شرقا. ولم يلبث الحكم إن وافته المنية بع هذا الدور الملحوظ.

ثانيا: الربيع بن زياد الحارثى:

بعد موت الحكم بن عمرو الغفارى وتولى خليد بن عبد الله خراسان، عزل الأخير وتولى أمرها الربيع بن زياد الحارثى، فواصل الربيع جهود سابقية بعد أن افتتح بعض بلدان خراسان إلى نهر جيحون عابرا إياه إلى أرض الصغانيان، ولقد اكتسب الربيع من هذه البلاد أموالا كثيرة اعتق على أثرها مولاه فروخا ثم وافته المنية فعين زياد بن أبى سفيان خليد بن عبد الله الحنفى على خراسان.

ثالثا: عبيد الله بن زياد:

فى عام ٥٤هـ، ٦٧٣م عين معاوية بن أبى سفيان عبيد بن زياد على خراسان، والحق يقال أن هذه التعيين كان فاتحه عهد للفتوح الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر، إذ اتخذت هذه الفتوح شكلا اقترب من الثبات.

ولا أدل على ذلك من قيام عبيد الله بن زياد بعبور جيحون إلى مدينة بيكند القوية الغنية فافتتحها، ثم واصل زحفه بجيشه الكبير إلى مدينة رامشين فافتتحها أيضا وهما من أعمال بخارى، واتجه بعد ذلك إلى مدينة بخارى نفسها وتمكن بعد معركة فاصلة بينه من جهة وبين قوات الخاتون حاكمة بخارى ومعها الأتراك الشرقيون من جهة أخرى أن ينتصر عليهم عام ٥٤هـ، ٦٧٣م ويغنم الميامون على أثر ذلك غنما كثيرا.

رابعا: سعيد بن عثمان بن عفان:

فى عام ٥٦/ ٦٧٥ عزل معاوية بن أبس سفيان عبيد الله بن زياد عن خراسان وولاها سعيد بن عثمان بن عفان، فحاول الأخير تكثيف جهوده على سمرقند، لكنه كان لزاما عليه أن يواجه قبل ذلك قوة (الخاتون) ملكة بخارى التى كانت تدفع جزية إلى عبيد الله بن زياد عن خراسان ورأت الخاتون جيوشا جرار من أتراك الصغد وكش ونسف تشد من أزرها إلا وأغراها ذلك بنقص الصلح،

ومن هنا كان لابد من الصراع بينهمت وبين سعيد، وبالفعل حدث هذا وتمكن سعيد من الانتصار عليها وعلى حلفائها كما أكد ذلك.

وعلى أثر هذا الانتصار تمكن سعيد بن عثمان من إقرار الأوضاع فى بخارى، ثم توجه بعد ذلك إلى سمرقند حتى رمى قهندزها، ودار قتال لمدة ثلاثة أيام حاصر فيها سعيد سمرقند حصارا جادا فطلب أهل سمرقند عندئذ الصلح مع سعيد فأجابهم إلى ذلك.

ولأهمية الموقع الاستراتيجى لمدينة (الترمذ) على نهر جيحون توجه إليها سعيد بعد هذا الصلح، وعمل سعيد بعد دوره الملحوظ فى بلاد ما وراء النهر على العودة إلى العراق.

وعندئذ طلبت منه الخاتون وبعد عبوره جيحون أمهلها حتى يصل مرو، أمهلها حتى دخوله نيسابور وبعد ذلك أمهلها حتى يأتتى الكوفة، وأخيرا استخدم هؤلاء الرجال فى خدمة المسلمين فأدى هذا الصنيع إلى حقدهم عليه وغدرهم به وقتله.

وهكذا رأينا كيف كان لكل من عبيد الله بن زياد وسعيد بن عثمان بن عفان دور متميز فى فتح بلاد ما وراء النهر، لكن هذا الدور أصابة الفتور بعد أن تولى أمر خراسان رجال ضعاف منهم من كل متخاذلا مثل (أسلم بن زرعه) الذى لم يغز أو يتقدم مرة فى بلاد ما وراء النهر، ومنهم من كان جشعا (كعبد الرحمن بن زياد)، وقد حدث ذلك فى أواخر عهد معاوية بن أبى سفيان.

وما أن تولى يزيد بن معاوية أمر الدولة الإسلامية عام ٦٠هـ حتى عادت الغازات الثغرية إلى سابق عهدها واضطلع بهذه المهمة سلم بن زياد والى خراسان.

خامسا: سلم بن زياد:

فى عام ٦١هـ/ ٦٨٠م تولى (سلم) أمر خراسان فعبر جيحون بعدد كبير من الجند على رأسهم قواد مثل المهلب بن أبى صفرة، وعبد الله بن خازم السلمى، وطلحة بن عبد الله الخزاعى وغيرهم.

وقد تمكن سلم من عقد لصلح مع أهل خوارزم مقابل أربعمائة ألف درهم،

بعدها أرسل أحد قواده المهلب بن أبى صفرة على رأس جيش إلى بخارى، أردفه بجيش أخر، ودار القتال بين المهلب وبين الخاتون وحلفائها وكان النصر حليف المهلب، فطلبت الخاتون الصلح مع زياد فأجابها إلى طلبها، وجدير بالذكر أن بعض المصادر العربية والأجنبية تشير إلى تقدم بعض قواته إلى مدينة حجندة على شاطئ نهر سيحون.

وهكذا رأينا ذلك الدور المتميز لسلم بن زياد وقواته فى بلاد ما وراء النهر، وإن كان الأستاذ فامبرى يرى فى كتابه تاريخ بخارى أن انتصار سلم على الأتراك يرجع إلى حسن الطالع، فإننا نخالفه رأيه لأن العرب لو كانوا يؤمنون بحسن الطالع لما انهزمت قوات سلم فى أول المعركة، ولما كان النصر قد أتى فى نهايتها بعد إمداده بالجيوش، فالمعارك لا تكسب بحسن الطالع بل بالإعداد والاستعداد الذى يعتمد على الإيمان والتمسك بالدين والثبات فى ميدان القتال عملا بقول الله تعالى: "يا أيها الذين امنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون".

عاد سلم بعد دوره المتميز فى بلاد ما وراء النهر إلى مرو بخراسان، أعقب ذلك مرو الدولة الإسلامية ببعض الاضطرابات نتيجة موت يزيد بن معاوية وولاية معاوية الثانى الضعيف، واندلاع الحروب الأهلية، وعصيان ابن الزبير، وبموت معاوية الثانى انتهى حكم البيت السفيانى ليخلفه فى السلطة البيت المروانى وعندئذ بدأت فتوح ما وراء النهر تتواصل مرة ثانية بولاية أمية بن عبد الله خراسان.

سادسا: أمية بن أبى عبد الله:

فى عام ٧٧هـ/ ٦٩٦م تولى أمية بن عبد الله خراسان فقاد حملة إلى خوارزم من بلاد ما وراء النهر، اتجه بعدها إلى بخارى، وعرج من بخارى على فافتتحها، ثم عاد إلى مرو بخراسان لاضطراب الأوضاع بها.

سابعا: المهلب بن أبى صفرة:

فى عام ٧٨هـ/ ٦٩٧م عين الحجاج والى العراق من قبل عبد الملك بن مروان المهلب بن أبى صفرة على خراسان فواصل المهلب الغارات الثغرية على بلاد

ما وراء النهر، ففى عام ٨٠هـ/ ٦٩٩، دخل إلى هذه البلاد ما ببلدة (زم) وصلا إلى مدينة (كش) التى اتخذها قاعدة حربية تنطلق منها قواته تحت قيادة أبنائه.

يؤيد ذلك إرسال ابنه يزيد لفتح الختل، وبعد صراعه الطويل مع ملك الختل تمكن يزيد من عقد صلح نال بمقتضاه الفدية، كما أن المهلب تمكن من فتح (خجنده) فأدت الصغر إليه الاتاوه، وأرسل بنه حبيبا على رأس حملة إلى مدينة (ينجن) قرب بخارى، عاد بعد ذلك حبيب إلى أبيه وهو بيكش فوجده بكش فوجده ينتوى العودة إلى مرو بعد قضاء عامين فى بلاد ما وراء النهر، وحين وصل إلى بلده (زغلول) وافته المنية ليخلفة فى حكم خراسان ابنه يزيد الذى لم يلبث آن غزا خوارزم وأصاب منها سببا كثيرا.

وفى عام ٨٥هـ،/ ٧٠٤م عزل الحجاج يزيد بن المهلب عن خراسان وولاها لأخيه المفضل فافتتح منت بلاد ما وراء النهر باذغيس وآخرون وشومان وغيرها.

وهكذا رأينا فى ذلك الدور الفعال الذى قام به المهلب وبنوه فى فتح بلاد ما وراء النهر وما أن أتى عام ٨٦هـ/ ٧٠٥م حتى عزل الحجاج المفضل بن المهلب عن خراسان وولاها لقتيبة بن مسلم الباهلى، ليبدأ عهد جديد من الفتوح الإسلامية المستقرة لبلاد ما وراء النهر والتى تجاوزت حدودها إلى مدينة كاشغر بالصين فإلى دور هذا القائد.

الفتح المستقر

فتوحات قتيبة بن مسلم فيما وراء النهر

ولى قتيبة خراسان من قبل الحجاج بن يوصف الثقفى - والى العراق والمشرق كله - وكان ذلك سنة ٨٥هـ، /م على الأرجح، بعد عزل المفضل بن المهلب.

وكان اختيار الحجاج لقتيبة لولاية خراسان اختيار موقفا وجاء فى موعده فقد كان الرجل من الأبطال الشجعان، ذوى الحزم والدهاء والفناء، ويعتبر بحق من كبار القادة الفاتحين الذين أجبتهم الأمة العربية، وعرفهم التاريخ الإسلامى.

ففى خلال حوالى عشر سنوات ٨٦ - ٩٦/ م فتح أقاليم شاسعة فى آسيا الوسطى، وهدى الله على يديه خلقا كثيرا، فأسلموا ودانوا لله عز وجل.

وقد شرف الله تعالى قتيبة بحمل راية الفتوحات الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر فى وقت ملائم تماما، فقد استفاد من جهود كل من سبقوه، وكان يعتمد بعد الله تعالى على والى العراق العظيم الحجاج بن يوسف الثقفى الذى اختاره لهذه المهمة الجليلة ووضع ثقته فيها، ولم يقتصر فى إمداده بالرجال والعتاد والرأى والمشورة، كما كان من حسن حظ قتيبة إن ولايته على خراسان واضطلاعه بقيادة الفتوحات فى بلاد ما وراء النهر قد جاءت فى وقت ملائم تماما حيث كانت الدولة الأموية قد تغلبت على جميع مناوئيها، واستقرت أمورها واستردت عافيتها، فى خلافة الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦هـ/ ٧٠٥ - ٧١٤م فاجتمعت لقتيبة شجاعة القائد وإقدامه وعزم الوالى وتصميمه، وقوة الدولة واستقرارها، فكانت أمجاده وأعماله الرائعة فى ما وراء النهر.

ولقد برهن قتيبة بن مسلم على أنه لم يكن قائدا عسكريا فذا وفاتحا عظيما فحسب، بل أنه كان رجل إدارة وتنظيم وسياسة من الطراز الأول وأنه كان يعرف طبيعة المهمة التى أوكلت إليه، كما أنه يعرف كل شىء عن خراسان القاعدة التى ستنطلق منها الغزوات - والتى كانت رياح بالخلافات والعصبيات العربية قد هبت عليها، من جراء التنافس على الولاية الناصب الأخرى بين أبناء القبائل العربية - خاصة اليمن وقس - فكان على قتيبة قبل إن يمضى إلى تنفيذ كمشروعه الكبير لفتح ما وراء النهر - أن ينسى العرب خلافاتهم ويجعلهم يرتفعون فوق العصبيات، ويذكرهم برسالتهم السامية التى أكرمهم الله بها وشرفهم بحملها، وأن يمدهم نفسيا لاستئناف الجهاد فى سبيل الله.

فما أن وصل خراسان حتى اجتمع برؤساء القبائل وأعيان الناس، وخطب فيهم خطبة بليغة، كان لها أبلغ الأثر فى جمع الكلمة، والتوجه للجهاد فى سبيل الله بدلا من ضياع الوقت والجهد فى المنازعات والخلافات القبلية التى لا طائل من ورائها.

وكان مما قالها قتيبة فى خطبته تلك، مخاطبا زعماء القبائل: "إن الله أحلكم هذا المحل ليعز بكم دينه، ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استضافة، والعدو وقما - أى ذلا " ووعد نبيه ﷺ - النصر بحديث صادق

وكتاب ناقط فقال تعالى: «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده، فقال تعالى: «ذلك بأنهم لا يصيبهم..... أحسن ما كانوا يعملون» ثم أخبر عمن يقتل فى سبيل الله أنه حى مرزوق فقال تعالى: ولا تحسبن الذين قتلوا.....ربهم يرزقون" فأنجزو موعد ربكم، وظنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى الم، وإياى والهوينى".

بهذه الخطبة البلغية ذكر قتية العربى برسالتهم ومسئوليتهم عنها وأهاب بهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشقات فى سبيل الله، كما فعل أسلافهم من قبل، حتى يفوز وا مثليهم بسعادة الدنيا والأخرة.

وكما نجح قتيبة فى توحى صفوف العرب فى خراسان تحت راية الجهاد فى سبيل الله فقد نجح فيلا كسب ثقة الخراسانين وودهم، حيث قربهم إليه وأسند إليهم الوظائف الإدارية وضمن بذلك تعاونهم معه، وكان كل ذلك مقدمة ضرورية وسليمة لتحقيق هدفه الكبير، وهو فتح بلاد ما وراء النهر.

خطوات الفتح ومراحله:

استغرق فتح بلاد ما وراء النهر بحوالى عشر سنوات ٨٦ - ٩٦هـ/ ٧٠٥ - ٧١٤م ومر عبر أربع مراحل رئيسية نوجزها فيما يلى:

المرحلة الأولى

استغرقت عاما واحدا تقريبا ٨٦ - ٨٦هـ / ٧٠٥ - ٧٠٦م، وفيه أخضع قتيبة إقليم طخارستان ذلك الإقليم الكبير الذى يقع على ضفتى نهر جيحون، والذى يبدوا إن أوضاعه لم تستقر تماما للمسلمين، طوال السنين الماضية، منذ فتحه الأحنف بن قيس، فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

فكان على قتيبة أن يخضع ذلك الإقليم للسيادة الإسلامية قبل عبور النهر وفيما يروى البلاذرى والطبرى، فإن قتيبة بعد أن استنبت له الأمور فى خراسان استخلف عليها إياس بن عبد الله بن عمر، وسار هو رأس قواته إلى طخارستان، فلما بلغ الطالقان تلقاه دهاقيين بلخ وعظمائها، فساروا معه فلما قطع النهر تلقاه

تيش الأعور ملك الصفانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده، وأتى ملك كفنان بهدايا وأموال، ودعاه - أيضا - إلى بلاده، فمضى مع تيش إلى الصغانيا فسلمه بلاده، ثم جاء غشتاسبان ملك أخرون وشومان، وهما من طخارستان، فصالحه على فدية أداها إليه فقبلها قتيبة ورضى ثم انصرف إلى مرو وهما من طخارستان، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم، يفهم من رواية الطبرى والبلاذرى كليهما أنه أصبح لقتيبة هيبة عظيمة فى تلك البلاد وأن طخارستان خضعت له دون قتال، وإن ملوك وأمراء بلاد ما وراء النهر هرعوا إليه يقدمون الهدايا وقروض الطاعة ويدعوه على بلادهم ويسلمونها إليه، ولكن الطبرى نفسه يروى رواية أخرى، وإن كانت بصيغة المبنى للمجهول يفهم منها إن قتية لقى حريا، فهو يقول "وقيل إن قتيبة أقام قبل إن يقطع النهر فى هذه السنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م على بلخ لأن بعضها كان منتفضا عليه فحارب أهلها ثم إن أهل بلخ صالحوا من غد اليوم الذى حاربهم فيه قتية.

وعلى كل حال لا يبدوا الخلاف كبيرا بين الروايتين لأن أهل بلخ لم يكونوا ملحين فى حربهم قتيبة، بدليل أنهم صالحوا من غد اليوم الذى حاربوه فيه، والنتيجة أن طخارستان خضعت طوعا، أو صلحا بعد قتال يسير، وأن قتيبة أطمأن إلى أوضاعها، وبدأ يتأهب لبدا جهاده الكبير فيما وراء النهر.

المرحلة الثانية ٨٧ ٩٠هـ/ ٧٠٦ - ٧٠٨م:

بدأ قتيبة أو خطواته لفتح ما وراء النهر سنة ٨٧هـ، فعبر النهر واتجه إلى مدينة بيكند - وهى أدنى مدائن بخارى إلى النهر - والتى كان المسلمون قد غزوها مرارا كثيرة - قبل قتيبة فلما نزل بعفوته - على حد تعبير الطبرى - استنصروا الصغد واستنجدوا من حولهم، فأتوهم فى جميع كثير وأخذوا بالطريق، فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولم يجز خبر شهرين بين، وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق الحجاج على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار، وهم يقتتلون كل يوم فكانت بين الناس مشاولة القتال بالرماح ثم تزحفوا والتفتوا، وأخذت السيوف مأخذها وأنزل الله على المسلمين الصبر، ثم منح الله المسلمين أكتافهم فانصرفوا يريدون المدينة، اتبعهم المسلمين فشغلوهم عن

الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلا وأسرا كيف شاءوا، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهو قليل - فوضع قتيبة الفعلة فى أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم واستعمل عليها رجلا من بنى قتيبة.

هذا هو تلخيص الطبرى لمعركة الاستيلاء على مدينة بيكند، التى لم يلبث أهلها أن نقضوا الصلح، وقتيبة منهم على خمسة فراسخ، مما اضطره إن يرجع إليهم وأن يقتل من كان بها وأن يغتنم غنائم كثيرة، قوى بها أمر المسلمين اشتهروا السلاح والخيل وتنافسوا فى، فانظروا لأنفسكم، فاستجاب هؤلاء الملوك، واختاروا عددا من أهل النجدة والباس من أبناء المرازبة والاساورة والأبطال، ووضعوا لهم خطة لمفاجأة معسكر المسلمين - أثناء أشغالهم بحصار سمرقند - ولكن قتيبة لم يكن بالقائد الذى يؤخذ على عرة، ولم يغب عن فكرة حدوث مثل هذه المفاجأت، فعلم بخبر هذا التجمع، وفاجأهم قبل أن يفاجئوه، بفرقة من جيشه بقيادة أخيه صالح بن مسلم فهزمهم وبدد شملهم وقتلهم ولم يفلت منهم إلا الشريد وغنم المسلمون امتعتهم وأسلحتهم وتدهورت مقاومات الصغد بعد أن رأوا معنوياتهم، وقرر قتيبة منهم تشديد الحصار على سمرقند، ونصب عليها المنجنيق وأحدث بها ثقبا وصاح كالأسد المصهور:

(حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان إنى والله لئن أصبحت لا حاولن من أهلك أقصى غاية)، فلما أصبح أمر الناس بالجد فى القتال فقاتلوهم وأشتد القتال، ولما رأى أهلها أن هزيمتهم أصبحت حتمية طلبوا الصلح، فصالحهم قتيبة عل ألفى آلف ومائتى ألف مثقال كل عام، وأن يعطوه فى تلك السنة ثلاثين ألف رأس، وأن يخلوا المدينة فلا يكون لهم فيها مقاتل، فيدخلها ويبنى فيها مسجدا ويخطب ويخرج، وبالفعل دخل المينة وحطم ما بها أصناما ولم يعبأ. بتخويفه منها، حيث قال له أحدهم: لا تتعرض لهذه الأصنام فإن ما بها أصناما من أحرقها أهلكته، فقال: أنا أحرقها بيدى فأمر إشعال النار، وكبر ثم أحرقها، فوجدا من بقايا مسامير الذهب خمسين مثقالا وهكذا بسط قتيبة السيادة الإسلامية على كل إقليم ما وراء النهر ثم عاد إلى مرو ليستريح ويريح استعداد لجولته الأخيرة التى سيفتح فيها المناطق السيحونية.

المرحلة الرابعة ٩٣ - ٩٦هـ/ ٧١١ - ٧١٤:

رأينا فى الصفحات السابقة اشتراك أهل فرغانة والشاش فى حرب المسلمين إلى جانب الصغد الذين حرضوهم على المسلمين وخوفوهم منهم قالوا " إن العرب إن هزمونا عادوا واستولوا على بلادكم، الأمر الذى جعل من الحتم على قائد حصيف مثل قتيبة إلا ينتظر حتى يهاجموه، فقرر إن يكون زمام المبادرة بيده دائما، ففى سنة ٩٤هـ / ٧١٢ عبر نهر سيحون ولأول مرة، ومعه قوات هائلة منها أربعة وعشرون ألفا من أهل بخارى وكش وخوارزم، فوجه قسما منهم إلى الشاش وتوجه هو على القسم الأخر إلى فرغانه، فخاض معركة شرية حول مدينة خجندة ويبدوا أن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة لأن قتيبة توجه إلى كاشان قبل أن يحسم أمر خجندة، وهناك أتاه جنوده الذين كان أرسلهم إلى الشاش، ومن الواضح أنه التقى بقوات من العراق، بل أمر محمد بن القاسم الثقفى إن يوجه إليه أيضا مدادا من السند فاحتج قتيبة إلى إمدادات من العراق والسند فوق ما معه من قوات كبيرة يعكس المقاونة الشرسة التى لقيها فى إقليم سيحون، وأنه كقائد عسكرى ممتاز لم يشأ يخوض معهم المعارك الحاسمة إلا بعد أن يضمن التفوق عليهم حتى يتحقق له النصر وقد نجحت خطط قتيبة وفتح إقليم الشاش وفرعانه سنة ٩٥هـ ٧١٣م ومن حسن حظ قتيبة، بل من حسن حظ الإسلام إن تمكن قتيبة من تحقيق هذا الإنجاز الهائل ومكن لدين الله فى تلك البلاد، قبيل موت الحجاج، الذى توفى فى هذه السنة سنة ٩٥هـ/ ٧١٣م، وقد أثر موت الحجاج على قتيبة تأثيرا كبيرا، فهو الذى كان يقف خلقه يشده من آزره بكل عزم وتصميم وأهم من هذا كله الثقة الكبيرة بين الرجلين والتى هى من أهم عوامل النجاح يقول الكريزى:

"وحينما سمع قيبة بموت الحجاج اغتم غما شديدا"

ولقد حزن حزنا عيمقا على موت قائده الكبير الحجاج، وتمثل بهذين البيتين من الشعر فقال:

لعمرى النعم الفتى من آل جعفر بجوار إن أمسى أعلقته الحبائل

فإن تحى لا أملل حياتى وإن تمت فمات فى حياة بعد موتك طائل

موقف الخليفة الوليد من قتيبة:

بعد إن أتم قتيبة فتح إقليم الشاش وفرعانه عاد إلى مرو عاصمة خراسان، وانتظر ما تأتى به الأيام بعد موت الحجاج، ولقد كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعرف طبيعة العلاقة بين الحجاج وقتيبه، وأنه يعرف قدر الرجلين، وان الثقة المتبادلة بينهما والتعاون كانت له ثمار طيبة وكان فى مصلحة الإسلام والمسلمين، بل فى مصلحة الدولة، وإذا كان الحجاج قدمات فليحاول الخليفة الاحتفاظ بقتيبة ليواصل جهاده وجهوده فى خدمة الإسلام ولذلك كتب له يزكية ويشجعه، وكان مما فقال له: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك فى جهادك أعداء المسلمين وأمير المؤمنين رافعك، وصانع بك الذى يجب لك، فأتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، كأنى أنظر إلى بلادك والثغر الذى أتت فيه.

أحدثت هذه الرسالة أثرا طيبا فى نفس قتيبة وأعطته دفعة قوية من العزم والتصميم، فعاوده نشاطه ورغبته فى الغزو والجهاد فخرج من مرو ليواصل فتوحاته، حيث وصل إلى كاشغر، التى يقول عنها الطبرى إنها أدنى مدائن الصين ويلخص الطبرى أعمال قتيبة فى هذه المرحلة الأخيرة أن أبعث رجلا من أشراف من معكم يخبرنا عنكم وتسائله عن دينكم.

اختار قتيبة عشرة - وقيل إثنى عشر - من خيره رجاله، برئاسة (هبيرة بن المشمرج الكلابى)، وأرسلهم إلى ملك الصين، ويقص الطبرى خبر تلك السفارة الإسلامية إلى بلاد ملك الصين فى حديث طويل، نكتفى منه بما انتهى إليه الحوار، حيث قال ملك الصين للوفد المسلم فى أسلوب تغلب عليه نبرة التهديد: "انصرفوا إلى صاحبكم، فقولوا له ينصرف عن بلادنا فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه" فرد عليه رئيس الوفد فى شجاعة وعزة المؤمن: أيها الملك كيف يكون قليل الأصحاب من أول خليه فى بلادك وأخرها فى منابت الزيتون، وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا وراءه قادرا عليها وعزاك فى بلادك، وأما تخويفك إيانا إن لنا أجالا إذا حضرت وأكرمها الله بالقتل فلا نكره ولا نخافه".

أعادت هذه المقالة ملك الصين إلى صوابه، وأيقن أنه قوم لا يجدى معهم

التهديد ولا الوعيد، فاعتدل فى كلامه، وقال لهبيرة فى نبرة جديدة غير نبرة التهديد الأولى: فما الذى يرضى صاحبكم؟ قال هبيرة "أنه حلف ألا ينصرف عن بلادكم حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم، ويمضى أى يأخذ منكم الجزية" قال الملك: "فإن تخرجه من يمينة، فبعث إليه ترابا من أرضنا فيطوه، وبعث أبنائنا فيختهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها، ثم دعا بصحاف من ذهب وملآها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء الملوك، ثم أجاز الوفد جوائز حسنة، فعادوا إلى قتيبة، فرضى وقبل الجزية وختم الغلمان، ووطئ أجاز الوفد جوائز حسنة، فعادوا إلى قتيبة، فرضى وقبل الجزية وختم الغلمان، ووطئ التراب.

أكتفى قتيبة بهذا من ملك الصين، ويبدوا إن الذى حمله على التساهل وقبول الحل الوسط الذى عرضة الملك ما حدث فى داخل الدولة الإسلامية فقد توفى الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ، ٧١٤م، ولم تكن علاقة قتيبة على ما يرام مع الخليفة الجديد، سليمان بن عبد الملك ٩٦ - ٩٩هـ، ٧١٤ - ٧١٧م لم ير أنه من المناسب إن توغل فاتحا فى بلاد الصين وهو لا يحس بالأمان من ورائه.

وعلى كل حال حسب هذا الرجل العظيم والفاتح الكبير أنه فى غضون عشر سنوات فتح بلادا شاسعة فيما وراء النهر، ثم عبر سيحون وفتح الشاش وإنه واشروسنة وكاشغر، كما أرهب ملك الصين وحمله على دفع الجزية.

وسيبقى اسم قتيبة بن مسلم الباهلى من الأسماء المضيئة فى التاريخ الإسلامى، فقد أضاف للعالم الإسلامى إضافة رائعة وجه مدنا كبخارى وسمرقند وغيرها لتكون مراكز مشرقة للحضارة الإسلامية فى وسط آسيا.

بلاد ما وراء النهر بعد قتيبة:

توقفت فتوحات قتيبة عند كاشغر، وملامسا بذلك حدود الصين، ولم تسمح التطورات التى حدثت فى الدولة الأموية بعد موت الخليفة الوليد ابن عبد الملك سنة ٩٦هـ / ٧١٤م باستمرار الفتوحات، لأن الفاتح البطل نفسه قتيبة قد قتل فى حركة شغب وسوء فهم من الجند - لا مجال لتفسرها، هنا ولكن الدولة الأموية وإن كانت لم تواصل حركة الفتوحات إلا أنها لم تفرط فى الإنجازات التى

حققها قتيبة فى تلك البلاد، بل كـرست جهودها فيما تبقى لها من أيام فى تثبيت الفتوحات والسيادة الإسلامية، وتهيئة البلاد لقبول الإسلام عقيدة وفكرا وثقافة قد اقتدى خلفاء بنى أمية فى هذا المجال - خاصة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عـبد الملك - بعمل معاوية ابن أبى سـفيان رضى الله عنه - فى بلاد فارس - وقـد أشرنا إلى ذلـك من قبل - وكـما نجحت بـلاد فارس من أول المدافعين عن الإسلام، وأصبحت قاعة الانطلاقـة الكبرى التى قادها قتيبة فى بلاد ما وراء النهر.

فقد نجـحت كذلك جهود الأمويين الأواخر - رغم مـا يصادف دولتهم من مشاكل كـبيرة - كان أخطرها الدعـوة العباسية أقـول رغم ذلك نجح الأمويين يوم معركة تثبيت الفتوحات فى بلاد ما وراء النهر - والتمكين للنفوذ الإسلامى وتهيئة البلاد لقبول الإسـلام عقيدة وفكرا وثقافة وسلوكا، وأصـبحت بلاد ما وراء النهر بدورها مدافعـة بحماس عن الإسلام وعاملة على نشره بين الأتراك الشـرقيين ولم تكن المهمة سهلة بل كـانت أصعب من مهمة الفتح ذاتهـا، وكانت بعيدة الأثر فى تاريخ الإسلام بصفة عـامة، وتاريخ أواسط أسيا بصفة خـاصة ولقد أخلصت بلاد ما وراء النهـر للإسلام كل الإخـلاص وغدت جزءا من أهم أجـزائه، غيـره عليه وتمسكا به فـمنذ إن دخل قتيـبة بن مـسلم الباهلى الإسلام فـى هذه البلاد، وهو صامـد وثابت كالجبل الأشم، رغم المحن والخطوب الهـائلة التى تعرض لها عـبر تاريخية الطويل هناك، والتى كان أخرها محنة السيطرة الشيوعية - والتى استمرت حوالى ثلاثة أرباع القرن - والتى بذلت كل جهودها وأساليبهـا الوحشية والهجمية فى القمع والـتنكيل بالمسلمين لزعـزعة الإسلام وهز مكانتـه بل محـوه من البلاد ولكنها بحـمد الله وفله - فشلت، وذهبت الـشيوعيـة إلى سلة القمامـة التاريخ، وبقى الإسلام وسيـبقى بإذن الله تعالى إلى قيام الساعـة وصدق الله العظيم حيث يقـول: " فأمـا الزبد. . . . . فيـمكث فى الأرض" ولقـد عبـر أحد علمـاء المسلمين من تلك البلاد والذى حضر احتفال مصر بليلة القدر ويوم الدعاء فى ليلة السابع والعـشرين من شهر رمضـان سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، عبر عن فـرحتهم بزوال الكابوس الشيوعى "الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن".

نعود إلى جهود التى بذولها للتمكين للإسلام فى تلك البلاد والتى لم تأخذ

حقها من الدراسة والتنوية حتى الآن - فقد واجـهوا الموقف بكل تعقيداته ومشاكله برجولة وإقدام، ولعل تذكر طبـيعة تلك البلاد وما كانت عليه أحوا لهـا السياسية والاجتماعيـة يرينا إلى مدى كان الموقف صعبا، ولقد قـاومت تلك البلاد الفاتحين المسلمين بضراوة، وكانت تلك المقـاومة نابعة من عدم فهمهم لطبـيعة الإسلام وما يحمله لهم من خير وسعادة وعزة وكرامه.

ولكنهم بعد أن عـرفوا قيمـة الإسلام وأهدافه ولكنهم بعـد أن عرفوا قيـمة الإسلام وأهدافه يروا موقفهم من العداء الشديد إلى الحماس الشديد للإسلام ومن خير ما يصور هذا التغيير ما يقـرره المؤرخ والمستشرق المجرى أرمينوس فامبرى فى كتـابه: تاريخ بخـارى: حيث يقـول: إن بخارى التى قـاومت العرب فى البـداية مقاومة عنيفة، قد فتحت لهم أبوابها لتستقبلهم ومعهم تعاليم نبيهم، تلك التعاليم التى قوبلت فى البـداية بمعارضة شـديدة، ثم أقبل القوم من بعـد عليها فى غـيرة شديدة، حـتى لترى الإسـلام - الذى أخذ شأنـه اليوم يضعف فى جـهات آسـيا الأخرى - وقد غـدى فى بخارى - اليوم١٨٧٣م - على الصورة التى كـان عليها أيام الخلفاء الراشدين ".

هذه شهادة مـؤرخ وباحث أوربى على التحول الهائـل الذى أحدثه الإسلام فى بلاد ما وراء النهـر، والذى لم يسبق له مـثيل فى تاريخـها، بل ولا فى تاريخ غيرها، فلم يـحدث أن غيرت أمم بأكملهـا عقائدها وتحولت إلى دين جـديد كما تحول سكان ما وراء النهـر تاركين عقائدهم القديمة، وقد تم ذلـك التحول بحرية كـاملة ويؤيد الباحث الروسى "بـارتولد" ما يراه، فـامبـرى حيث يقـول عن هذا الموضوع: ولكن الانضمام إلى عالم الإسـلام المترمدين لم يكن ممكنا لهؤلاء البدو إذا دخلوا فى الإسلام من حيث هو دين، ومن العوامل التى سـاعدت على انتشار الإسلام بين الترك، خاصة ما امتاز بها الإسلام على سائر الأديان (العالمية)، فعلى الرغم من أن إتباع المسيحية أكثـر عددا من المسلمين، فإن الإسلام دين عالمى بمعنى الكلمة، أى أنه ليس مقصورا على جنس أو قومية، ولئن كانت بعض الديانات قد علت الإسلام فى هذه الناحية فـإن توفيقها كان مؤقتـا، ولم تستطيع الحصول على نتائج دائمـة كالتى أحرزها الإسلام، فـالديانة المانوية مثلا كـانت فى وقت ما دينا عالميا، وكان أتباعها منتـشرين فى أماكن تمتد من جنوب فرنسا إلى الصين، ولكن

هذه الخاصية لم تمنع المانوية من الاضمحلال الكامل، وقد بدأت البوذية نشاطها فى الغرب فانتشرت هنالك ولكنها فى نهاية الأمر ظلت دينا للشعوب المتحضرة فى شرق آسيا فقط ثم يمضى بارتولد فى سوق الأدلة والأمثلة على تفوق الإسلام على كل الأديان فيقول: "وفى التاريخ أمثلة كثيرة لأمم بوذية ومسيحية تركت ديانتها ودخلت فى الإسلام، ولكنا لا نجد أمة إسلامية واحدة تخلت عن دينها ودخلت فى البوذية أو المسيحية.

على كل حال واجه الأمويون الأواخر مشاكل جمة فى بلاد ما وراء النهر كان أبرزها طموحات الأمراء الذين أبقاهم الأمويون يحكمون بلادهم تحت السيادة الإسلامية، وكان معظم هؤلاء تربطهم بالدولة الأموية معاهدات نظمت العلاقات بين الطرفين، وبصفة خاصة التعاون العسكرى والمالى، ولكن هؤلاء الأمراء كانوا يحاولون القفز فوق تلك المعاهدات مستغلين فترات الضعف والاضطراب التى كانت تمر بها الدولة الأموية، ومن أمثلة ذلك ثورة أمير فرغانه - بعد وفاة قتيبة - ومحاولة استرداد نفوذه القديم وثورات بخارى وسمرقند، ولكن الدولة الأموية لم تتهاون فى مواجهة تلك الثورات وقمعها ونجحت فى إخضاع أغلب الأمراء الذين بدءوا يدخلون فى الإسلام خاصة فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز - الذى دعاهم للدخول فى الإسلام - وبعده وبدءوا يتأقلمون مع الوضع الجديد ويتآلفون مع العرب بل بدؤوا يدافعون عن الإسلام بحماس ضد الأتراك الشرقيين، الذين توالت إغارتهم على بلاد ما وراء النهر وأخذوا يشكلون خطرا على الدولة الأموية التى تصدت لذلك الخطر بجرأة وجسارة، وقام الولاة الأمويون مثل الجراح بن عبد الله الحكمى، وعبد الله ابن معمر اليشكرى، الذى تابع الغزو فى الجزء الشمالى الشرقى من البلاد ونسب إليه أنهم يغزو الصين نفسها.

وظلت الدولة الأموية والأتراك الشرقيين فى صراع يتبادلون النصر والهزيمة حتى تغلبت كفة الدولة الأموية على يد الوالى الشجاع أسد بن عبد الله القسرى ١١٧ - ١٢١هـ/ ٧٣٥ - ٧٣٨م ونصر بن سيار١٢١ - ١٢٩هـ/ ٧٣٨ - ٧٤٦م الذى حظى بمكانه فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى تلك البلاد لا تقل عن مكانة قتيبة بن مسلم، فهو الذى حمى بلاد ما وراء النهر من خطر الأتراك الشرقيين.

وخلاصة القول إن فتح بلاد ما وراء النهر وتثبيت ذلك الفتح وتهيئتها لقبول الإسلام، عقيدة وفكرا وثقافة وسلوكا يعتبر من أهم منجزات العصر الأموى.

التركستان فى أواخر عصر بنى أمية

أدرك الأمويون فى إقليم ما وراء النهر أن معركة تـأمين المكاسب وتثبيتها لن تتم بانصرافهم إلى المـيدان الداخلى فحسب، لأن الارتباط كـان وثيقا بين الأخطار الداخلية والخارجـية. فقد كـان الأتراك الشرقيون يلحـون فى الإغارة على الحدود الشرقية للبلاد ويتعاونون مع الأمراء الخـارجين، منتهزين الفتن والثورات التى امتلأ بها العـصر. وكان لزاما على الأمـويين كما أخـضعوا الأتراك الغربيـين أن يصدوا عدوان الأتراك الشرقـيين وأن يحولوا دون اتحاد كلمة الترك بكل مـا استطاعوا من قوة.

وتعد مراحل الصراع بين الأمويين وبين الأتراك الشرقيين فى هذه الفترة من أهم الجهود التى قدر لهـا أن تحمى الإسلام والثقافة العربيـة فى البلاد. فقد نهض الأتراك الشرقيون وعادوا الظهور فى القرن الثـامن الميلادى، وامتدت إمبراطوريتهم من بلاد الصين حتى إقليم ما وراء النهر، وظلوا يهددون إقليم ما وراء النهر طوال العصر الأموى. وحاولوا أكثر من مـرة الإفادة من ثورات الأمراء الخاضعين للعرب للاستيلاء على ما وراء النهر. وتوالت غاراتهم بلاد الصغد وفرغانة.

ولم يكف الأمويين عن التصـدى لخطر الأتراك الشرقيين حمـلاتهم فى عهد الجراح بن عـبد الله أو عـبد الله بن مـعمر الـيشكرى الذى تابع الغـزو فى الجزء الشمالى الشرقى من البلاد، ونسب إليه أنه هم بغزو بلاد الصين نفسها كما تابعت الحملات فى عهـد عبد الرحمن بن نعيم المغادى وسعيـد بن عبد العزيز الذى ولى البلاد فى عهد يزيد الثانى وفى عهد مسلم بن سعيد وغيره من القواد العرب.

وظل العرب والأتراك الشرقيون يتبادلون النصـر والهزيمة فى معارك حياة أو موت، حتى لاحت طلائع النصر فى آخر العـصر الأموى على يد العامل أسد بن عبـد الله القيسـرى (٧٣٥ - ٧٣٨م) (١١٧ - ١٢١هـ) ونصر بن سـيار (٧٣٨ - ٧٤٨) (١٢١ - ١٣١هـ) الذى يحـتل فى تاريخ النضـال الإسـلامى مكانة لا تقل عن مكانة قتيبـة، فهو الذى حمى ما وراء النهر من الأتراك الشـرقيين وصان تراث

العرب فى البلاد. ففى عهده استفحل الخطر التركى، واتصل الأتراك الشرقيون ببعض الأمراء الناقمين، وهزم العرب فى اللقاء الأول وعبر الهزيمة وفرقوا جموعهم، وعبروا نهر سيحون من ورائهم يتعقبونهم، ودخلوا إقليم الخطل وفتحوه. وظل نصر بن سيار يتابع هذا العصر حتى سنة ٧٤٨م (١٢٩هـ)، وهى السنة التى استطاع فيها إن يعزل الخطر الخارجى عن المشاكل الداخلية وأن يقر السيادة العربية فى حوض سيحون وعقد المعاهدات مع أمراء أشروسنة والشاشن وفرغانه، وأسر خان الأتراك الشرقيين وقتله.

كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموى التى مكنت للسيادة الإسلامية من بلاد ما وراء النهر وأضافوا إلى هذه الجهود جهودا أخرى فى ميدان الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة العربية فى البلاد. وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الأول فقد كان قتيبة بن مسلم يبنى المساجد فى بخارى وسمرقند ولم تكن المساجد دورا للعبادة فحسب، وإنما كانت مدارس للثقافة الإسلامية، واتبع ذلك بتوطين تكن المساجد دورا للعبادة فحسب، وإنما كانت مدارس للثقافة الإسلامية واتبع ذلك بتوطين القبائل العربية فى المدن الكبرى كبخارى وسمرقند. وتتابعت هذه الجهود فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى أسقط الجزية عمن أسلم وأمر عماله بالدعوة إلى الإسلام. واستمرت هذه الجهود بعد عمر خاصة فى عهد الوالى أشرس بن عبد الله السلمى (٧٢٧ - ٧٢٩م) (١٠٨ - ١١٠هـ) إذا كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية فى البلاد. فكان ذلك مقدمة لمدارس بخارى وسمرقند.

وقام الأمويون فوق ذلك بالدعوة السلمية إلى الإسلام خاصة فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى ألزم العمال إن ينشروا الإسلام كما اختار الوالى أشرس بن عبد الله السلمى المبعوثين من العرب والفرس لتبشير بالإسلام بين الأتراك. يقول البلاذرى ودعا هشام أهل ما وراء النهر إلى الإسلام وأمر بطرح الجزية عمن أسلم، فسارعوا إلى الاسم وانكسر الخراج. معنى هذا إن الآلاف من الناس تدافعوا إلى اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية.

وضحت هذه الجهود بصورة أوفر فى عهد نصر بن سيار الذى تغلب على جميع الانقسامات الداخلية، ووضع حدا لما عاناه المسلمون من مشاكل الجزية والخراج ويذكر أن ثمانين ألفا من غير المسلمين اعتنقوا الإسلام فى عهد مصر. وذهب نصر فى تسامحه إلى أبعد مدى فعفا عما ارتد عن الإسلام وأعفاهم من متأخرات الجزية والخراج واستعاد الأسرى المسلمين وأقر الأمن على الحدود.

وما كاد الأمر يستتب للعرب على هذا النحو حتى بدأ تجار المسلمون يطرقون الطرق التجارية القديمة، والمراجع الصينية تذكر إن قوافل المسلمين فى القرن الثامن الميلادى كانت تعبر طرق آسيا الوسطى كلها، وانتهى بهم المطاف إلى بلاد القولوق على المجرى الأعلى لنهر الينسى، ثم امتد نشاط هؤلاء التجار إلى بلاد القرغيز. وقد أشار الحال المسلمون إلى هذه الطرق التجارية ووصفوها أصدق وصف، ومن الغريب أن تتفق هذه الأوصاف مع ما جاء بنقوش أورخون. وقد اهتم المسلمون على الخصوص بالطريق المؤدى إلى بلاد الصين. وقد أفاض الرحالة المسلمون فى وصف الشعوب التركية المحيطة ديارها بهذه الطرق.

انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر

قبل الحديث عن انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر، يجدر بنا أن نقول كلمة موجزة عن طبيعة الدعوة الإسلامية والعوامل التى مكنت للإسلام من الانتشار والقبول فى جميع الأقطار التى فتحت بصفة عامة، وفى بلاد ما وراء النهر بصفة خاصة.

أما عن طبيعة الدعوة الإسلامية وماهيتها فهى طبيعة عالمية، والدين الإسلامى دين عالمى بمعنى الكلمة، فقد جاءت الرسالة الإسلامية للجنس البشرى كله، وليس لشعب دول منها فأقام لهم الوالى القاضى (حاضر بن جميع) الذى نظر فى القضية، ورأى إن الحق مع أهل سمرقند المغلوبين - فحكم بإخراج المسلمين من المدينة إلى أن ينابذوهم على سواء، ولكن أهل سمرقند - وقد أذلهم هذا السلوك الإسلامى الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ البشرى - كرهوا الحرب وأقروا المسلمين على الإقامة فى مدينتهم وأسلموا.

هذا هو الإسلام، وذلك هو سلوك المسلمين. وهذا المثل الوحيد - الذى

خالف فيه قتيبة ما اتفق عليه من أهل سمرقند - وسط كل تلك الحروب المتواصلة والأحداث المتلاحقة، وكثرة الانتفاض ونكث العهود من أهل تلك البلاد، يدل على إن المبدأ الأصيل هو التزام المسلمين بالوفاء بالعهود، وأن السلطة الإسلامية العليا - الخلافة كانت ساهرة على حفظ وصيانة المعاهدات وتصحيح أى خطأ قد يحدث من أى عامل فى أى مكان.

فعلى سبيل المثال عندما أخطأ بعض العمال - لما تزايد إقبال الناس على اعتناق الإسلام، وأدى ذلك إلى تناقص الجزية بذلك قواعد الإسلام، عندئذ لم يحتمل ضمير الأمة الإسلامية هذا الخطأ الجسيم، المخالف لمبادئ الإسلام التى تمنع أخذ الجزية من المسلم، وسخط المسلمون العرب - قبل غيرهم - على هؤلاء العمال الذين ارتكبوا هذا الخطأ، ورفعوا الأمر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذى غضب غضبا شديدا على هؤلاء العمال وأمرهم على الفور برفع الجزية عمن يسلم، وصاح صيحته المشهورة «قبح الله رأيكم، فإن الله قد بعث محمدا هاديا ولم بعثه جابيا.

والأمثلة فى هذا المجال كثيرة، وخلاصة القول، إن معاملة المسلمين الكريمة وسماحتهم مع أبناء البلاد المفتوحة كانت من أهم عوامل جذبهم إلى الإسلام.

٢ - العامل الثانى الذى كان له أثر كبير فى انتشار الإسلام فى البلاد المفتوحة هو إشراك أبناء البلاد فى إدارة بلادهم، فالفاتحون المسلمون لم يصنعوا صنيع الحكومات السابقة عليهم، ويحرموا أبناء البلاد من إدارة بلادهم.

فالمسلمون لم يحتفظوا إلا بعدد قليل جدا من المناصب، مثل الإمارة وقيادة الجيش والقضاء - وكان ذلك ضروريا - وما عدا ذلك من الوظائف فقد كان متاحا لأبناء البلاد المفتوحة الذين بقوا على أديانهم، ووصل عدد كبير منهم إلى أعلى المناصب الإدارية التى كانوا محرومين منها فى عهود ما قبل الحكم الإسلامى، وكانت حكومة الخلافة الإسلامية تضع ثقتها فى أهل الأمانة منهم دون أبه حساسية.

ويكفى أن نقدم على ذلك مثلا واحدا من العصر الأموى، حيث بقى ديوان الخراج المركزى فى دمشق عاصمة الخلافة، وهو أهم دواوين الدولة - تحت رئاسة

أسرة مسيحية، وهى أسرة (سرجون بن منصور الرومى)، طوال عهود الخلفاء، معاوية بن أبى سيعنان وابنه يزيد، ومروان ابن الحكم وابنه عبد الملك، وكان ديوان خراج العراق فى الفترة ذاتها تحت رئاسة رجل فارسى، هو (زادان فروخ)، ولم يكن سرجون بن منصور - هو مسيحى - رئيسا لديوان خراج عاصمة الخلافة فقط، وإنما كان مستشارا سياسيا للخليفة معاوية بن أبى سفيان.

وقد توسع الأمويون فى استخدام أبناء البلاد المفتوحة فى الإدارة مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان إلى الحكم الإسلامى وجعلهم يقبلون على اعتناق الإسلام بملئ إدارتهم الحرة.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو: كيف انتشر الإسلام فيما وراء النهر وما هى الأسباب التى جعلت من هذا الإقليم كعبة يحج إليها علماء الإسلام؟ والذى خرج لنا قمم رجال العلم فى التفسير والفقه والحديث والتشريع والفلك والطب والهندسة والفلسفة والطبيعة، والجبر وغيرها، مثل الإمام البخارى شيخ المحدثين والترمذى، والنسائى، والنفسى، ابن ماجه، وابن سينا، وغيرهم من أفذاذ العلم، والذين لازالت بصماتهم واضحة جلية على مختلف العلوم الإسلامية، ما دام هناك إسلام على وجه المعمور، هل فرض الإسلام على أهله فرضا وما هى طبيعة انتشاره. وما هى الأسباب التى دعت الأتراك لترك دياناتهم القديمة والانصهار فى بوتقة الإسلام؟ والمحافظة عليه حتى الآن؟ لقد ارتبط انتشار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر بعدة عوامل منها:

١ - طبيعة الدعوة الإسلامية: التى بدأت منذ عهد المصطفى؟ كانت طبيعتها واحدة فى كل قطر من الأقطار التى وصلتها، دعوة عالمية (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، ليس فيها إكراه ولا بغى، بل كانت تشمل على ثلاث خصال الإسلام أو الجزية أو القتال.

٢ - سماحة الإسلام: أتسم الإسلام بالسماحة والمساواة بين الناس، لذا وجد قبولا لدى العديد من الشعوب غير العربية لتنال حقوقها المهضومة ومنها أتراك الصغد.

٣ - حالة البلاد المفتوحة: فبحكم موقع إقليم الصغد الجغرافى والذيا كان

معبرا لعديد من الثقافات الصينية والهندية، والفارسية، والبيزنطية وغيرها، مما أدى من انتشار عـدد من العقائد التى لم تستطيع أن تواجـه عقيدة التوحـيد، فأدى إلى اعتناق أهله الإسلام.

٤ - دور القادة والاة المسلمين: والذين لم يكونوا قـادة فقط بل كان أغلبهم دعاة فى نفس الوقت، وقد غلبت حمـاستهم الدينية حماستهم الحـربية، رغبة فى نشر الإسلام بتعاليمه السامية، ومعـاملتهم السمحة لأبناء البلاد المفتوحة، واحترام أدميتـهم وكرامتهم ولقد تجلت تلك المعاملـة لا فى نصوص المعاهدات التى نظمت العلاقات بين المسلمـين الفاتحين وبين أبناء البلاد المفتوحة الذيـن فضلوا البقاء على أديانهم فحسب، بل الوفاء من جانب المسلمين بتلك المعاهدات والالتزام بها بأمانة وشرف.

فلما دخل قتيبة بن مسلم سمرقند على شروط معينة، لم يفت بالشروط مع أهلها، فلما جاء عمـر بن عبد العزيز ٩٩ - ١٠١هـ/ ٧١٧ - ٧١٩م رفع إليه أهل سمرقند بشكواهم وقالوا إن قتيبة قد دخل مدينتهم على وعد بالخروج منها، ولكنه لم يف بوعده، أى غدر بهـم، فكتب عمر إلى عاملة أن ينصب لهم قـاضيا ينظر شكواهم، فإن قضى بإخـراج المسلمين من المدينة خرجوا منهـا، فأقام لهم الوالى القاضى «حـاضر بن جميع» الذى نظر فى القـضية ورأى أن الحق معـهم، فحكم بإخـراج المسلمـين من سمـرقند ولكن أهل سـمـرقند، وقـد أزهلهم هذا السلوك الإسلامى الـذى لم يسبق له مـثيل فى التـاريخ البشـرى، كرهوا الحـرب، وأقروا المسلمين على مدينتهم، ودخلوا فى دين الله أفواجا.

هذا هو الإسلام، وذلك هو سلوك المسلمين، وخليفهم، وهذا المثل الوحيد - الذى خالف قـتيبـة ما اتفق عليه أهل سـمرقند - وسط كل الحـروب المتواصلة الأحداث السابق ذكـرها وكثرة الانتفاضـات والثورات ضده وغدرهم بالعهـود معه يدل هذا كل على الالتزام المسلمين بالعهود، وأن سلطتـهم العليا - الخلافة ساهرة على حفظ وصيانة المعاهدات وتصبح أى خطأ من أى قائد مهما كان شأنه.

فعلى سـبيل المثـال عندما أخطأ بعض العمـال - لما تزايد إقبـال الترك على الإسلام، وأدى ذلـك إلى تناقص الجزية، وأبقـوا الجزية على من أسلـم، وصاح

صيحته الشهيرة «قبح الله رأيكم فإن اللـه قد بعث محمد هاديا ولم يبعثه جانبا»، كما وضع (نصر بن سيار) حدا لما عاناه مسلمو آسيا الوسطى من مشاكل الخراج والجزية، ويذكر الطبرى، أن ثمانين ألفا من غير المسلمين اعتنقوا الإسلام فى عهد نصر بل ذهب نصر فى تسامحه إلى أبعد مدى فعفا عمن ارتد عن الإسلام وأعفاهم من تأخرات الجزية والخراج واستعاد الأسرى من المسلمين وأقر الأمن على الحدود.

٥ - بناء المساجد والربط والخوانق: كان الحكم الغفارى أول من صلى فى وراء النهر ولكنه لم يبنى مسجدا وفى عهد قتيبة بن مسلم بنيت المساجد فى بخارى وسمرقند التى لم تكن دورا للعبادة فقط، بل كانت مدارس للثقافة الإسلامية، يتعلم فيها أتراك الصغد الإسلام وأحكامه واللغة العربية، وتتابعت هذه الجهود فى عهد الوالى أشرس بن عبد الله السلمى (١٠٨ - ١١٠هـ/ ٧٢٧ - ٧٢٩م) الذى كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت الإسلام والثقافة العربية فى البلاد، فكان ذلك مقدمة لمدارس بخارى وسمرقند فى عهد السامانيين.

٦ - توطين القبائل العربية فى إقليم آسيا الوسطى: كانت عادة الفاتحين من العرب تهجير قبائل عربية من شبه الجزيرة العربية فى البلاد المفتوحة ولما أتم قتيبة الصغد أسكن عددا من القبائل العربية فيه قدرها المؤرخون بحوالى أربعة آلاف فيذكر الاصطخرى «أنه كان من سمرقند قوم من بكر بن وائل يعرفون بالسباعية»، ويقول المقدسى، إن قوم بكر بن وائل الذين يعرفون بالسباعية كانت لهم سمرقند ولايات وأن بخارى كان يسكنها عدد من العرب إذ وجد أن أبوابها باب بنى أسد، وبنى سعد وأن الغالبية العظمى من العرب كانوا من المقاتلين المدونين فى الدواوين، إلى جانب مهاجرين من العرب وفدوا على الصغد بعد عمليات الفتح، وقد ساعدت هذه الهجرات العربية على نشر الإسلام وتعليم أتراك الصغد اللغة العربية.

٧ - اشتراك أهل الصغد فى إدارة بلادهم: كانت سياسة قادة الجيوش الإسلامية وتعاليم الخلافة اشتراك أهل البلاد المفتوحة فى إدارة بلادهم عاملا مهما فلم يحرم الأتراك من إدارة بلادهم فى ظل الإسلام، ولم يحتفظ المسلمون إلا

بعـدد قليل جدا من المناصب مـثل الإمـارة وقيـادة الجيش والقـضاء أمـا المناصب الإدارية الأخرى فقد تركوا عليها أهلها، مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان إلى الحكم الإسلامى، وجعلهم يقبلون على اعتناق الإسلام وفق إرادتهم الحرة.

٨ - دور الصحابة والتابعـين: بعد أن سمح الخليفة عثـمان بن عفان رضى الله عنه لكبار الصحـابة بالخروج من المدينة، اصطحب أغليهم الجيوش الإسـلامية الخارجيـة للغزو، بل صار بعضهم قـوادا عليها، مثل الحكم بن عمـرو الغفارى، وقثم بن العـباس بن عم رسول الله؟ والذى صـحب جيش سعـيد بن عثـمان بن عفـان واستـشهد فى سـمرقند، وبنى له فى بخـارى ضريج يزار للان ويتـبرك به الناس، والذى كان قد رفض عرض سـعيد بن عثمان بتمييـزه بألف سهم عن بقية المسلمين فقال قثم رضى الله عنه: لا أريد غيـر سهم واحد محكم الشريعة، وهذا يدل على سـمو روح هؤلاء الصحـابة وعدم رغـبتـهم فى المال، بل الجهـاد ونشر الدعوة الإسلامية.

كـما يوجـد فى بخـارى مكان يسمى (نور) دفـن فيـه كثـيـر من التابعـين المصاحبـين للجيش أو المهاجرين لنشـر الإسلام واللغة العربية ومـا زال مزارا حتى اليوم ويعرف بنور بخارى.

٩ - العبـاسيون ودورهم فى انتـشار الإسلام فى الصغـد: بذل العباسـيون جهودا كبيـرة تثبيت أقدام الإسلام والفتوح الإسلاميـة فى إقليم الصغد وغيره من أقاليم أسيا الوسطى، وكان لهم دورا مهما فقى انتـشار الإسلام والثقافة الإسلامية فى هذه البلاد وقد وجد العباسيون حركة.

دور العباسيين فى تاريخ الأتراك

كان قيام الدولة العباسية فى خراسان وما وراء النهر تعبير عن حركة إسلامية ضخمة من آخر العصر الأموى وقد أفاد العباسيون هناك لمبادئ الدعوة القائمة على العدل والإصلاح والأمامة للرضا من آل حمد.

ووجد أهل الـبلاد المتطلعـين إلى مزيد من النفـوذ والسلطان والراغبـين فى الخلاص من مظالم العـصر الأموى الأخيـر فى الدعوة الجديدة ما يحـقق آمالهم.

واستطاع أبو مسلم الخـراسانى أن يجذب الدهاقين والفلاحين إلى دعـوته الناقمين على بنى أمية جميعا، كخوارج سجستان واليمانية وقاد أبوة مسلم أنصاره الجدد من الخراسانية والأتراك الغربيين فى حفـه الكبير نحو إيران حتى سقطت الدولة الأموية وقامت الدولـة العباسـية بل أسـهم أبو مسلم فى قـمع الحركات الإيرانيـة المناوئة للإسلام لتوطيد نفوذه وتعلو كلمتـه فقضى على ثورة قام بها الكهنة المجوس هناك وكان أنصاره الدد خاصة أهل بخارى عدته فى قـمع الثورات العربية التى اشتغلت هناك عام ١٣٣هـ/ ٧٥٠م، فقد قـاتل فى صفـوف عاملة (رياد بن صـالح) بخار خدات قتيبـة ومعه أهل نحو سبعمائة من الحـصون والقلاع. وأعان هؤلاء الأنصار زيادا فى استعادة سمرقند.

وكان للعباسيين دورهم البارز فى تاريخ العلاقات العربية التركية وفى انتشار الإسلام بين أوطان التـرك. فقد تعرضت بلاد ما وراء النهـر لخطر فادح، ذلك أنه بعد سقوط إمبراطورية الأتراك الغربيين لم تشهد سهوب تركستان إمارة قوية توحد البدو وتشـد من آزرهم، فانتهـزت الصين الفرصـة السانحة وبسـطت نفوذها على الأتراك الشرقيين، وأرادت أن تفـيد من تفرق الإمارات التركية وانشغـال العباسيين بتوطيد دولتهم الناشئة، فتفرض سلطانها على بلاد ما وراء النهر. وأن كنا نعتقد أن المطامع الصينية لم تكن لمجـرد فرض السيطرة السياسية، إنما كـانا نعتقد أن المطامع الصينية لم تكن لمجرد فرض السيطرة السياسية، إنما كان القصد منها الاستيلاء على طرق القوافل التى تعبرها متاجر الشرق الأقصى إلى ما وراء النهر والشرق الأوسط وأوربا.

وفى سنة ٧٤٨م/ ١٣١م. استولت الصين على سوياب وخربتها، وفى السنة التالية قتل أهل الصين عامل الشاش لأنه لم ينفـذ سياستهم، وذلك بسبب تحريض أخشيـد فرغانة فى الوقت الذى استنجد فـيه ابن أمير الشاش بالعـرب وكان القائد العباس رياد بن صالح قد فرغ لتـوه من أخاد الفتن الداخلية والثوات فى خراسانت فتصـدى للجيش الصينى وأنزل به هزيمـة ساحقة. وكان هـذا الجيش يقوده Kao-Hsien-Chlt وذلك فى يوليو عام ٧٥١م (١٣٤هـ).

والرولية العربية لا تخلو من بعض المبالغـات حين يذكر أن خمسين ألف من جند الصين قـتلوا فى المعركة، وأن عـشرين ألف أسروا، على حـين تذكر الوثائق

الصينيـة أن الجيش كله لم يتجاوز ثلاثين ألف رجل. وكـان هذا النصر من أعظم الانتصـارات العربية فى تاريخ أسـيا الوسطى، فقـد كان على تركسـتان إذ ذاك أن تقرر إلى أى المدينتين تنحاز إلى المدينة الإسلامية أو الصينية.

وقد تابع العباسيـون توطيد سلطانهم هناك ذلك أن أبا داود خالد بن إبراهيم الذى ولى بلخ من قـبل أبى مـسلم أحرز النصـر فى الخطل وكش وهرب دهقـان الخطل لائذا بالصـين، كمـا قتل كش فى هذه الحـرب ويبدو أن هذه الانـصارات العربية كانت شديدة الواقع على سياسة الصين ففى سنة ٧٥٢م. ١٣٥هـ بعث أمير اسروشنة إلى الصين يستعيدها على العرب فرفضت تلبية النداء.

وكان من أثر انتصار العرب هذا أبعـاد الصين عن المعركة الدائرة بين العرب وبين الأتراك الشرقيين. وبات على هؤلاء أن يلقوا العرب معتمدين على جهودهم ومواردهم وحدها. وقد وضـحت بعد هذا النصر تطورات هامة حقـا فقد ضعف عدوان الأتراك الشـرقيـين ولم يعد العبـاسيـون يجابهون قـوات كبيـرة كمـا فعل الأمويون من قـبل. فقد تفـرقت وحدة الأتراك الشـرقيين. وقـامت منهم أمارات صغـرى متناثرة حول حدود مـا وراء النهر، فظهرت أمـارة القرلون سنة ١٤٧هـ، ٧٦٤م. شرقى نهر سيـحون واحتلت مدينة سوياب، مـا ظهرت إمارة لأوغوز فى الحوض الأدنى مـن هذا النهر. ولم تعـد جموح الأتراك الشـرقيـين تشكل خطرا فادحا على إقليم مـا وراء النهر. بل أصبح لا هم لهم إلا الغارات الخـاطفة أو مد يد المعـونة للولاه الترك الثـائرين وكانت الدولة العـباسـية تصد بخـارى وفى بلاد الشـاش لإعطاء الإقليم الحمـاية والطمـأنينة التى لابد منهـا لتمـضى المشروعـات الإسلامية فى طريقها إلى النجاح.

وقد بذل العباسـيون الجهود الكبيرة فى صد عدوان الأتراك الشـرقيين، ففى عهد الخليفـة المنصور بعث الليث رسولا إلى بلاد فرغانة وكـان أميرها قد آوى إلى كاشغـر واضطر إلى طلب السلام ودفع الجزية، ثم دعاه العـرب إلى الإسلام فلما أبى أودع السجن حتى ولى المهدى الخلافة.

أما المهدى فـقد بعث (أحمد بن أسد) فى حملة إلى فـرغانة ثم أعقب ذلك بعـثة الرسل يطلبـون إلى كثـيرين من الأمـراء الخضـوع لسلطانه، فـاستجـاب له

كثيرون: منهم أخشيد بل بلغ من جرأة المهدى أن بعث الرسل إلى إمبراطور الصين. يطلب الخضوع لنفاذه، أما الرشيد فقد بعث عامله (بن عطاء عمرا بن جميل) بقضى على الفتن الداخلية فى البلاد، ويتلقى فروض الولاء والطاعة من أمير أسروشنة.

ولما كان المأمون مقيما بمرو فقد بعث جيشا إلى بلاد الصغد واسرشونة وفرغانة، ويشير المؤرخون إلى حملة بعثها العباسيون سنة ١٩٤هـ (٨٠٠م) إلى مدينة قولان، وقيل احتدام النزاع بين الأمين والمأمون بدأ الأخير يلقى المتاعب ن الأتراك الشرقيين، فقد خراسان، وكف أمير أترار عن دفع الجزية، وقد أشار الفضل بن سهل على المأمون بأن يكتب إلى القرلون وخاقان التبت بأنه قد ولاهما على بلادهما ويعدهما بالوقوف إلى جانبهما الصلح وأن يرد إلى أمير أترار جزية سنة، ويبدو أن هذه الجهود تكلت بالنجاح.

وهكذا استطاع العباسيون أن يحلوا هذه المشكلة المستعصية فى تاريخ العلاقات العربية التركية بوقفهم عدوان الأتراك الشرقيين وقضائهم على الخطر الصينى.

العباسيون وانتشار الإسلام فى البلاد:

كان للعباسيين - كما رأينا - دورهم الواضح فى المجالين السياسى والعسكرى وكان لهم أيضا دورهم فى انتشار الإسلام والثقافة العربية فى البلاد.

ويمكننا أن نقول أن العباسيين وجدوا حركة إسلامية كبيرة انتشرت فى خراسان وفى إقليم ما وراء النهر، وكانت تلك البلاد طوال العصر الأموى تابعة لصالحهم وأن يكسبوا رضا المسلمين هناك توطئة للقضاء على الحكم الأموى، إذ لم يكن من الممكن أن يعتمد العباسيون على حركة سطحية ضحلة لا تمكنهم من النجاح المنشود، ولم يكن اختيارهم لمنطقة خراسان وما وراء النهر عبثا.

وقد اتجهت الدعوة الهاشمية إلى إقليم خراسان وما وراء النهر أواخر العصر الأموى واضطلع بها قبل أبى مسلم يحيى بن زيد العلوى وإبراهيم بن محمد العباسى، وكان منطق الدعة العباسيين إذ ذاك يجذب إليه هؤلاء المسلمين الجدد،

فقد كانوا يدعون لأحياء سنة رسول الله ﷺ وأن ينال المسلمون حقوقهم السياسية والمدنية، ولا يمكن أن نغفل أولئك المسلمون دعوة تلك أهدافها ومراميها.

كان الدعوة العباسيون فى السنوات السابقة على انتصارهم يسعون إلى طبقات معينة من الناس، يسعون إلى كسب اليمانية دون المضرية وكسب أهل الريف وطبقة الدهاقيين، فاتخذت حركاتهم طابعا شعبيا صرفا، وكانت الدعوة تلقى الاستجابة الشاملة إذ يذكر أن ست قرى دخل أهلها فى دعوة أبى مسلم فى يوم واحد، وأن نجاح الثورة العباسية فى خراسان وما وراء النهر يدل على هذه الحركة الإسلامية التى استغلوها لصالحهم.

وقد أكدت الأحداث التالية لنجاح انقلابهم هذه الحقيقة ذلك أن الانشقاق العلوى لقى قبولا فى منطقة بخارى حيث قامت ثورة (شريك بن صالح) تنادى بأحقية العلويين، وقد تجمع حوله نحو ثلاثين ألفا من بخارى وحدها، بل امتدت هذه الحركة إلى خوارزم إلى أن تمكن العباسيون من القضاء على هذه الثورة واستعادة نفوذهم.

ويرجع الفضل إلى العباسيين فى أنهم مكنوا لهذه الحركة الإسلامية العميقة من أن تمضى فى سبيل نجاحها ليكتسب إقليم ما وراء النهر فى مستهل القرن الثالث طابعا إسلاميا واضحا.

وأهم الجهود التى بذلها العباسيون فى الميدان السياسى والعسكرى هى حماية إقليم ما وراء النهر من الأخطار الداخلية والخارجية التى هددته وحمايته من خطر الصين والأتراك الشرقيين، ثم القضاء على ثورات الأمراء المحليين، وليس من شك فى أن الأمن الذى انتشر فى البلاد فى ظل بنى العباس أعلى من شأن الحاكم العربى فى نظر الناس وساعد من طريق غير مباشر على التمكين للحركة الإسلامية من أن تمضى فى طريقها ونجاح الإدارة العربية فى حل المشكلات التى استعصى حلها رفع من قدر الحضارة الإسلامية فى نظر الناس.

وكان على الولاة العباسيين أن يمكنوا للنظم الإدارية فى البلاد مستهدفين بالتقاليد الساستانية، وأن يوحدوا بين الفرق والاتجاهات المختلفة وأن يسودوا الأمن والطمأنينة، وإلا يضعف السيف فى علاقتهم بالولاة الثائرين أو بخلفائهم من

الأتراك الشرقيين، وقد تحقق للعباسيين إخضاع البلاد تماما للنفوذ الإسلامى، والقضاء على أى تهديد من الدخل أو الخارج عندما عدلوا عن السياسية القديمة من كثرة عزل الولاة وتوليتهم إلى سياسة جديدة أكثر ملاءمة تقضى بأن تكون الولاية وراثية فى أبناء الأشراف من أهل البلاد العالمين بأحوالها والذين يظفرون بتقدير الناس واحترامهم.

* * *